

الفخار في الجنوب الجزائري دراسة تحليلية وجمالية (مدينة بشار أنموذجا)

أ.د. مهتاري فائزة (جامعة تلمسان)

Abstract:

Handcrafts are considered as very important among the industries in Algeria, mainly in Bechar's area. They do not only contribute in Tourism prosperity but they are so demanded by the tourists during the whole year. Among the most useful ones pottery. Since the need to pottery appears to suit it within the needs of primitive people, and as a result of the development, pottery craft developed through the use of clay which depends on the decoration of animals, plants and geometric shapes too. In Bechar craftsman are still preserving this patrimony from machine's innovation, with all the advantages that this last offer, they prefer working by their hands. the choice of colors is suitable to the area and to the Sahrawian preferences, so that we find the red, the yellow clear and dark brown. We are trying throughout this study to make people aware of this very important handcraft that will disappear if we did not play a crucial role to preserve it.

مقدمة:

يحتل الفخار أو الخزف مكانة مهمة في التراث الحضاري الإسلامي، وقد حظي الخزف الإسلامي بعناية الكثير من العلماء والباحثين وقد كان حافظهم إلى هذه العناية، كثرة ما عُثر عليه منه في الحفريات التي اضطلعت بها الهيئات العلمية، في مراكز الحضارة الإسلامية ومواطن ازدهارها في مختلف عصورها.

ومن أهم الأسس التي اعتمد عليها العلماء في تاريخ الخزف: المادة الخام وطريقة الصناعة، والزخارف والمكان الذي عُثر عليه فيه، وقد عمد المؤرخون عند عدم توافر هذه الأسس إلى الافتراض أو الترجيح¹.

وقد حظي الفخار في الجزائر بمكانة هامة، إذ أنه غنيّ بالأشكال والألوان وإن اختلف من منطقة إلى أخرى إلا أنه يعكس تراثاً محلياً ثرياً وإبداعات رائعة، تفتن من خلالها الصّناع في إظهار إمكانياتهم وحرصوا على عكس عاداتهم وتقاليدهم المحلية، ومن أشهر أنواع الفخار في الجزائر، الفخار بمنطقة القبائل، وندرومة، والفخار الصحراوي، وهو محل دراستنا في هذه المداخلة التي سنحاول فيها تناول جانب مهم من جوانب الصناعات التقليدية في منطقة بشار والتي تعتمد على هذه الصناعات في استقطاب السّواح والحفاظ على الإرث الثقافي والحضاري للمنطقة، على غرار حرفة الترميل، والسلالة، وصناعة المجوهرات وغيرها من الفنون الرائعة.

يوجد في الجزائر نوعان من الفخار:

1. الفخار الريفي:

وهو موجود بكثرة وهو يستلهم أشكاله من سجل قديم وثري بالرموز والأشكال الإيحائية. وتعد منطقة القبائل من أكثر المناطق محافظة على هذا الموروث الفني من خلال تنوع الأواني الفخارية: كالمزهريات، الجرار، أواني الطعام، وتبقى هذه الصناعة مزهرة وراسخة في المجتمع الجزائري لارتباطها الوثيق بأدوات المطبخ.

2. الفخار في المدينة:

يتميز الفخار في العديد من المدن بتأثره بالأشكال الإسلامية.

تزرع منطقة بشار بصناعات تقليدية عديدة أهمها الفخار الذي يعدّ من أكثر الفنون التطبيقية التشكيلية انتشاراً فهو جزء من تقاليد المنطقة ويعبر عن الواقع الاجتماعي من خلال النماذج والأشكال المدروسة.

وحرفة الفخار عند أهالي منطقة بشار جزء من أصالتهم وهويتهم، وتورّث جيلاً عن جيل. والفخار يصنع من الطين المحروق دون طلاء ومادته أقل نقاء من طينة الخزف وجدرانه غليظة وهشة ويستخدم في صناعة القلّل والأواني المطبخية².

ونظراً لحاجة الفرد للأواني الفخارية فإن حجمها يختلف على حسب اختلاف نوع الحاجة، فهناك فخار للاحتياجات اليومية لاستعمالات في المطبخ، وهناك من يستعمله للزينة والتجميل³.

ويعد الطين المادة الأولية لصنع الأواني الفخارية، حيث يستخرج من مناجم خاصة، ولمنطقة بشار طينات مختلفة وأبرزها من حيث الاستعمال:

(أ) **الطينة العادية:** وهي التي يصنع منها الفخار ذو اللون البني الفاتح والذي يعطي وحدة اللون للأواني الفخارية بعد تجفيفها وتسويتها ومرونتها⁴.

(ب) **الطينة الحمراء:** والتي نجدها في مناطق كثيرة لأنها قريبة من سطح الأرض ويمكن الحصول على كميات كبيرة منها بسهولة وقد توجد على شكل ترسبات واسعة في الوديان والسهول⁵.

(ج) **الطينة البيضاء:** وهي منعدمة في الصناعة المحلية بشار رغم جودتها وتحملها لدرجة حرارة عالية.

ينقسم الخزف من حيث المواد المصنوع منها وطريقة صنعه إلى ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول:** أوان مصنوعة من طينة (عجينة) حمراء محروقة مطلية أو غير مطلية، ويعرف هذا النوع بالفخار، وينقسم هذا الأخير إلى ثلاثة أقسام: فخار غير مطلي، وفخار مطلي، وفخار من طينة سوداء⁶.

- **النوع الثاني:** أوعية مصنوعة من طينة (عجينة) بيضاء جيدة ويعرف هذا النوع بالخزف وتتكون العجينة الجيدة منه على ثلاثة مواد: مواد مرنة ومواد خشنة ومواد صاهرة⁷.

- **النوع الثالث:** الأواني المصنوعة من خزف شفاف تسمح عجنتها بمرور الضوء وتعرف بالبورسولين وتمتاز هذه العجينة بنقاوتها إلى حد بعيد، وللحصول على الثلاثة السابقة يجب أن تمرّ صناعته بمراحل عديدة هي⁸:

1. مرحلة الأعداد والتحضير .
2. مرحلة التشكيل .
3. مرحلة التجفيف والحرق.
4. مرحلة الزخرفة.
5. مرحلة التلميع.
6. مرحلة الحرق الثانية.

والطينة الحمراء هي الأكثر استعمالاً في حرفة الفخار بين أهالي منطقة بشار، وبعد إحضار الطين يقوم الحرفي بتنظيفه من الشوائب العالقة ثم يقوم بكسر الكتل الطينية ثم تبلل بالماء ثم يضاف إليها بقايا الأنبيات القديمة أو نشارة الخشب. وبعد خلط المواد مع مادة الطين تترك ليومين أو ثلاثة حيث توضع في أكياس بلاستيكية لتخميرها وتجدر الإشارة أن إضافة القطع القديمة المكسرة من الفخار والتي تسمى بالعامية بـ«التفون» الذي يترك نعومة للمصنوعات ويعطي الفخار خفة حسب الحرفيين»⁹.

ويتم تكوين الطينة غالباً باليد وإذا زاد الطلب يتم تحضير المادة بالاستعانة ببعض الشباب القاطنين بالمنطقة ويتم تحضير الطينة في حوض واسع أو أحواض تشبه أحواض صباغة الجلود مستعملين الأرجل لكسب الوقت¹⁰.

والتربة الكاشفة تصلح لصنع أواني الشرب من الفخار كالجرار والشربات.... وهناك ما يسمى بالتربة الكامدة فهي أكثر خشونة والأواني المصنوعة منها أكثر سماكة وهي في صنعها أقل دقة لقلة طواعيتها أثناء التشكيل ويمكن الاستفادة منها في صنع تشكيل القطع الفخارية الكبيرة التي تستوجب أن تستوي بدرجات حرارة عالية قد تصل إلى 1000 لذلك قد تسمى لبعض من هذا النوع من التربة ما يعرف بالتربة النارية التي تتحمل درجة الحرارة العالية¹¹.

تأتي بعد ذلك مرحلة تشكيل العجينة وهي تتم بثلاثة وسائل: أولها باليد ومع أن استعمال اليد هو أقدم الوسائل التي عرفها الإنسان منذ عرف الأواني المصنوعة من الطين إلا أنها تحتاج إلى مهارة فنية عالية والوسيلة الثانية هي استعمال الدولاب في عملية التشكيل وقد لجأ الإنسان لاستخدام الدولاب في أول أمره لتشكيل القطع الأسطوانية وقد عرف الدولاب منذ أقدم الحضارات، فقد عرفه قدماء المصريين... ثم تطورت الدواليب وتعددت أنواعها فبعضها يدار باليد أو بالقدم، إلا أن الدولاب الروماني ذا القرصين هو الذي شاع استعماله في العالم القديم ولا يزال يستعمل في وقتنا الحالي.

أما الطريقة الثالثة فهي تشكل بواسطة الصب في القوالب وتستعمل هذه الطريقة غالباً إذا تتوفر الطينة الصالحة للإنتاج التجاري باستعمال الدولاب¹².

وقد لاحظنا في الواقع صناعة الفخار بمدينة بشار أن عملية التشكيل للعجينة قد تتم إما بـ:

- ✓ التشكيل اليدوي بأساليب المختلفة.
- ✓ التشكيل على الدولاب (العجلة) الذي يدار بالقدم أو الكهرباء.
- ✓ التشكيل بالماكينات الدوارة والمكاسب.
- ✓ التشكيل بقوالب الجبس إما بأسلوب الضغط داخلها أو الصب بالطينات السائلة.

ويتم التشكيل أيضا بطريقة الحبال: وتستوجب هذه الطريقة الطينية المتماسكة ذات الليونة والتجانس وذلك بعمل حبال ذات سمك متقارب وطول مناسب ويبدأ ببناء قاعدة على شكل دوائر حلزونية فوق بعضها. ومن مميزات هذه الطريقة أنها تتيح أشكالاً مناسبة باستخدام أدوات بسيطة¹³.

ويتم تحضير الطين الناعم، وبعد تخميره في الماء لمدة يوم واحد ثم يوضع على لوح خشبي لمدة يوم واحد حتى يصبح عجينا حيث يُداسُ بالقدمين أو باليد حتى يكتمل عجنه ثم يقطع منه ويوضع على سطح مكتبة دولاب الفخار، بعد ذلك تدار بواسطة القدمين وتشكل عجينة الطين بواسطة اليدين خلال دورانها حسب الطلب من أجل التشكيل¹⁴.

وعند انتهاء الحرفي من تشكيل القطعة على الدولاب يعمد إلى تزيينها بلمسات فنية وزخارف ومن ذلك إحداث خيط بارز أو محفور حول العنق أثناء الدوران¹⁵.

أما المرحلة الثالثة في صنع الأواني الفخارية فهي عملية التجفيف أو الحرق، وهي آخر الخطوات في تشكيل الإناء قبل زخرفته، فبعد أن تجفف الأواني تجفيفاً طبيعياً، وبالتدريج تصبح معدة لحرقها لتتحول من طينة جافة إلى خزف. وتحرق الأواني في درجات حرارة مختلفة حسب تركيب طينته، فالطينة الحمراء (أي الفخار) المحتوية على أكسيد الحديد لا تتحمل درجات الحرارة المرتفعة ويكفي لحرقها الوصول إلى درجة 900 سنتجرات تقريباً، أما الطينة البيضاء مثل الكولين وهي التي تحتوي على مادة الأليومين بوفرة ويقل بها أكسيد الحديد والمواد الغريبة الأخرى، فإن حرقها يتطلب درجات حرارة مرتفعة تصل إلى 1100 سنتجرات.

ويسمى حرق الأواني بعد عملية تشكيلها مباشرة، بالحرق الأول، إذ أنها تحرق مرة ثانية وثالثة ورابعة في بعض الأحيان بعد دهانها بالطلاءات المختلفة¹⁶.

وعملية الحرق إما أن تتم في فرن تقليدي خاص بالحرق يسمى عند البعض الكانون أو يتم

حفر حفرة حيث تتم عملية الحرق عن طريق جذوع النخيل، كما يبين الحرق عن طريق جذوع النخيل. كما يبين الحرق مدى صلابة تركيبة الجسم ومدى تحمله للنار ودرجة تماسك جزئياته وتفاعلها مع بعضها¹⁷.

أما المرحلة الرابعة فيتم فيها طلاء الأواني وزخرفتها وهنا يظهر الذوق الفني ومدى إبداع الحرفي، في استعمالاته للزخارف المتنوعة وقد شاع استعمال نوعان من الزخارف: الهندسية والنباتية والتي هي عبارة عن وحدات زخرفية يشكلها الحرفي في التعبير عن خياله وبعد نظره.

ويستعمل الرسم باستعمال ورق الكربون ويعتمد على قلم الرصاص من نوع (hb) أو (hu)، والرسومات التي تدرج على المنتج الفخاري لها أشكال متنوعة إما أن تكون هندسية أو نباتية أو كتابات بالخط العربي أو المزج بينهما وهذا على حسب طلب الزبون، ولكل شكل ثمنه الخاص به¹⁸.

وقد تتنوع الوحدات الزخرفية من طبيعية كفن التوريق الهندسية المعتمدة على أشكال المثلث والمربع والمستطيل والدائرة وغيرها، والوحدات الزخرفية الحية والتي تعتمد على الخطوط الحرة ومعرفة التكوين البنائي والتشريح للطبيعة، والوحدات الزخرفية الكونية، والتي تشمل مظاهر الكون من السحب بتشكيلاتها المختلفة وكذلك الأبراج السماوية، وكذا البحار والرياح والأرض وما عليها من كثران رملية وسهول وغيرها¹⁹.

وقد تختلف وسائل الزخرفة من ألوان مائية أو تزيينية وحتى الترابية والتي تعني تزيين الأنية الفخارية بمادة التراب ولكن بلون مغاير.

أنواع المصنوعات الفخارية:

نجد المصنوعات الفخارية في منطقة بشار والمصنوعة بالطين الأحمر، أواني الطعام والشرب وأوان مختلفة أخرى:

- **الصحون:** تمتاز صحون المنطقة بشكلها الدائري وعدم وجود القواعد في الأسفل، وتمتاز بسمك حجمها ولاسيما الصحون (القصارى) التي تستعمل في صنع الكسكس.

- **الأقداح:** وتأتي في صدارة المصنوعات الفخارية لأنها تستعمل في طبخ الطعام وهي تتسم بكونها أوعية ذات قواعد مستوية غير مستديرة لأنها توضع فوق المناصب وتشغل النار من

الأسفل لطهي الطعام، ويظهر للقدر عروتان قرب الفوهة من الجانبين وحافة دائرية وسميكة بوضع غطاء له مقبض من وسط الغطاء شكله كروي أو بيضوي.

أواني الشرب:

- **القلقل:** تصنع من الطين ولها شكل دائري وتستعمل لحفظ الماء وتبريده ومنها ما يستعمل لحفظ اللبن ومنها ما يستعمل لحفظ اللبن ومنها ما يستعمل لحفظ المنتوجات الزراعية، ويوضع في فوهة القلة العادية ويُسمونها (بيقيب) وهناك نوع آخر يسمى (غلوس) ويستعمل لجلب الماء لذلك وضع له الفخاريون عروتين.

- **الأزيار:** يختلف زير المنطقة عن باقي الأزيار في المناطق المجاورة وبدنّه يشبه بدن القلة ولكنه يختلف عنها في شكل الرقة إذا أن الزير الذي يصنع بالمنطقة له رقبتان جانبيتان وله صمام مصنوع من الطين يوضع في فوهة الرقة له مقبض نصف دائري وله من الأسفل قاعدة صغيرة قليلة التجويف تأخذ في الأخير شكلاً دائرياً ويمكن وضع الزير على سطح مستوي على عكس القلة.

- **الجدار:** وهو جمع جرة، وتستعمل لشرب الماء.

- **الأكواب:** وهو الكائن أو الطاس يأخذ شكلاً أسطوانياً، والأواني المستعملة للشرب والطعام لا تزخرف بواسطة الرسومات.

الآلات الموسيقية الفخارية:

يصنع من الطين ما يعرف بـ(أقلال) واهتم به نساء المنطقة للتنفيس عن همومهن من جهة وليعبرن به عن أفراحهم وهو أنواع أهمها:

أقلال: وهو كبير الحجم بوضع تحت الإبط بمشد وينقر عليه حيث يستعمل في رقصة البارود ورقصة الطبل.

أقلال (الربوعي): وهو أقل حجماً من الأول كما يختلف عنه الإيقاع، أما الصغير (بقالي- أبقة) فيمسك بقبضة اليد وعادة ما تتسلى له الفتيات في المناسبات والدربوكة²⁰.

التحف الفنية:

منها المزهريات وهي حديثة الصنع بالمنطقة وقد أصبح الفخاريون يتفنون بمادة الطين لإبداع بعض التحف (كالمبخرة).

ولعل آخر مرحلة هي مرحلة التلميع، وتنقسم الدهانات إلى نوعين: دهانات شفافة وأخرى غير شفافة»²¹.

وعملية تلميع الأواني الفخارية تعطيها ميزة خاصة إذا ما تعلق الأمر بالفخار الخاص بالديكور»²².

وبعد أن تتم عملية التلميع للأواني الفخارية يتم حرقها من جديد في الفرن في درجة حرارة عالية ولمدة 24 ساعة فتصبح لامعة وتتحول بذلك إلى خزف.

ولعل خاتمة مداخلتنا سنحاول من خلالها جمع أهم خصائص الفخار بمنطقة بشار، والتي تعد من أهم المناطق الجزائرية في هذه الصناعة، ويعتبر حرفيوها من المتشبهين بهذه الحرفة التي توارثوها أبا عن جد.

ولعل أهم ما يميز هذا النوع من الفخار الصحراوي وينعكس ذلك من خلال مواد الصناعة وخاصة الألوان الرملية النابعة من المنطقة كما أن الأشكال أكثرها هندسية أو نباتية، وقد أدرجنا نموذجاً لمزهريّة بها زخارف كونية، مجسدة في أمواج البحر الذي قد يشترك إليه ساكنو المناطق الصحراوية لذلك يحاولون محاكاته والتماسه من خلال الأشكال المرسومة على المزهريات والآنيات.

ولعل الميزة المهمة الثانية أيضاً هي غلبة الألوان الداكنة من البني الغامق إلى التدرج في البني والأسود والقرميدي، وذلك طابع خاص بالمنطقة فهو يتجسد أيضاً في ألوان المنازل والعمائر.

تظهر في فخار مدينة بشار أشكال هندسية مستمدة من أشكال منطقة تمناست وسكان الطاسيلي وهي زخرفة غالبية من بشار إلى القنادسة وأدرار. وقد تنعكس الأشكال الموجودة في المجوهرات الفضية على الآنيات الصحراوية وحفاظاً على الطابع الصحراوي المتجذر في هوية الإنسان المحافظ على ثقافة الأصلية.

ملاحظة أخرى مهمة تخص الفخار بالمناطق الصحراوية، هو أن الأواني البسيطة والمستعملة يومياً لا تنفق عليها طلاءات غالبية، في حين يتفنن الحرفي في زخرفة الأواني الغالبة والمزهريات.

لا يزال الحرفيون في منطقة بشار، على غرار الكثير من الحرفيين في الجزائر، يستعملون الأساليب

التقليدية في صناعة الفخار، لا شيء سوى للمحافظة على هذه التقنية الفريدة من نوعها في الصنع، ومع أن التطور قد مسّ الكثير من المجالات إلا أن هؤلاء لا يزالون يعشقون الدولاب والعجن البسيط حتى تلامس أياديهم تلك الطينة النقية والبسيطة، بساطتهم وبساطة بيئتهم الجميلة.



طرق صناعة الفخار وتزيينه وعرضه بمنطقة بشار

هوامش البحث:

- 1 . سهاد ماهر، الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، طبعة 1397هـ-1977م، ص:3.
- 2 . الملتقى الثاني للبحث الأثري والدراسات التاريخية، الفخار في الجزائر، أدرار في 1994م، ص:66.
- 3 . مرزوق محمد بن عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، (ح)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص:100.
- 4 . عقاب محمد الطيب، الأواني الفخارية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص 21.
- 5 . بيلينكشون دورام، فن الفخار، صناعة وعلماً، ترجمة: عدنان خالد وأحمد شوكت، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1974م، ص:5.
- 6 . Arsenaux : Les arts décoratifs, p :169.
- 7 . سعيد حامد الصدر، الخزف، المطبعة الأميرية، 1958، ص:9.
- 8 . نفسه، ص:13.
- 9 . سيمو حياة، الحرف التقليدية بولاية بشار حرف الترميل والفخار والسلالة نماذج، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم الثقافة الشعبية، 2011م-2012م، ص:192.
- 10 . نفسه، ص:192.
- 11 . نفسه، ص:192.
- 12 . W.P Parry ; Pottery for schools, (London), pp:35 – 36.
- 13 . سيمو حياة، المرجع السابق، ص:137.
- 14 . صناعة الفخار، من موقع: www.alruyadh.com.
- 15 . عقاب الطيب، المرجع السابق، ص:23.
- 16 . سعاد ماهر، المرجع السابق، ص:48.
- 17 . صناعة الفخار، من موقع: www.alruyadh.com.
- 18 . أحمد صربي زايد، دراسة مبادئ وأصول القواعد الزخرفية وعناصرها وأساليبها، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر، 1998م، ص:15.
- 19 . نفسه، ص:23.
- 20 . سيمو حياة، المرجع السابق، ص: 169 – 168.
- 21 . Kerny; The complte book of pottery, Making, p: 200.
- 22 . الصناعة التقليدية الجزائرية، نشر المؤسسة الوطنية للاتصالات والنشر والاشهار، Anep، أفريل 1998، ص:87.